

سابا زريق شاعر الفيحاء
وصوت الالتزام في الأدب اللبناني الحديث
بقلم الباحثة د. فاطمة الخواجا

يشكل الشاعر اللبناني **سابا زريق (١٨٨٨-١٩٧٤)** واحداً من أبرز الوجوه الأدبية التي أنجبتها مدينة طرابلس خلال القرن العشرين، حتى غدا اسمه ملازماً للمدينة التي أحبها وأخلص لها، فاستحق لقب **"شاعر الفيحاء "**الذي رافقه طوال حياته وأصبح جزءاً من هويته الأدبية والثقافية.

وإذا كانت الدراسات الأدبية العربية قد أولت اهتماماً واسعاً لبعض أعلام الشعر اللبناني الحديث، بمن فيهم شاعر الفيحاء، فإن تجربة هذا الاخير تستحق وقفة علمية مميزة، ليس بسبب ضخامة نتاجه فحسب، بل أيضاً لما تمثله من نموذج فريد للشاعر الملتزم بقضايا مجتمعه وأمته، والساعي إلى توظيف الكلمة الشعرية أداة للإصلاح والتوعية وبناء الوعي العام.

ولد سابا زريق سنة ١٨٨٨، ورحل سنة ١٩٧٤، مواكباً التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية الكبرى التي عرفها لبنان والمشرق العربي. الأمر الذي جعله شاهداً على مراحل تاريخية متعاقبة، انعكست آثارها بصورة واضحة في شعره ومواقفه الفكرية.

ولم يكن حضوره مقتصراً على المجال الأدبي وحده، إذ هو جمع بين الشعر والتربية، والإدارة، والعمل العام، والصحافة. فقد شغل مناصب تربوية متعددة حتى بلغ رتبة مفتش في التربية، كما اضطلع بدور بارز في الشأن البلدي نائباً لرئيس بلدية طرابلس بدورتين متتاليتين، وأسهم كذلك في الحياة الصحافية من خلال رئاسة تحرير جريدة "الحوادث" الطرابلسية، قبل انتقال امتيازها وتحولها لاحقاً إلى مجلة، والاسهامات في العديد من الصحف اللبنانية والعربية.

ومن ثم، فإن دراسة شاعر الفيحاء سابا زريق لا تقتصر على قراءة نصوص شعرية فحسب، وإنما تقتضي النظر إليه بوصفه شخصية ثقافية متكاملة شاركت في صياغة الحياة الفكرية والاجتماعية في وطنه خلال مرحلة مهمة من تاريخه الحديث.

شاعر الفيحاء وصاحب العشرين ألف بيت

تكشف الآثار الكاملة لسابا زريق عن تجربة شعرية استثنائية من حيث الحجم والاستمرارية. فقد خلف ما يقارب **عشرين ألف بيت من الشعر**، الأمر الذي جعله يعرف أيضاً بلقب **"صاحب العشرين ألف بيت."**

وقد تولى حفيده، الدكتور **سابا قيصر زريق**، جمع هذا التراث ونشره في **ستة مجلدات** شكلت المرجع الأساسي لدراسة الشاعر وأدبه.

وتتوزع هذه المجلدات على النحو الآتي:

- المجلد الأول: السيرة والمسيرة وبعض الآثار النثرية.
- المجلدات الثاني إلى الخامس: الأعمال الشعرية الكاملة.
- المجلد السادس: منزلته الأدبية، وبعض الدراسات حوله وشهادات به.

وتكمن أهمية هذا العمل في أنه لم يحفظ النصوص فحسب، بل أتاح للباحثين إعادة قراءة تجربة شاعر امتدت لعقود طويلة، وتنوعت موضوعاتها بين الوطني والاجتماعي، والتربوي، والقومي، والإنساني.

سابا زريق وشعر الالتزام

وإذا كان بعض الشعراء قد كتبوا للمناسبة بوصفها غاية في ذاتها، فإن شاعرنا استخدم المناسبة وسيلة لطرح رؤيته الإصلاحية.

فهو لم يكن، في بعض قصائده، مجرد شاعر مناسبات بالمعنى التقليدي للكلمة، بل كان في جوهره شاعر التزام؛ وقد ارتبط التزامه بعدد من القضايا المركزية:

المنحى الاصلاحي

حضر المجتمع في شعره بوصفه مشروعاً قابلاً للتغيير والتطوير.

فدعا إلى:

- نبذ الطائفية البغيضة
- ترسيخ القيم الأخلاقية.
- مكافحة الجهل.
- إتقان العربية الفصحى
- ترسيخ مفهوم المواطنة الصحيحة

التربية والتعليم

بحكم عمله الطويل في المجال التربوي، نظر إلى التعليم باعتباره ركيزة من الركائز الأساسية لبناء الإنسان والمجتمع.

ولذلك لم يكن حديثه عن المدرسة والمعرفة حديثاً نظرياً، بل نابعاً من تجربة عملية عاشها داخل المؤسسات التعليمية.

القضايا الوطنية والقومية

عبّر شعره عن انشغاله بقضايا وطنه وأمته، فكان منحازاً إلى قيم النهضة والوحدة والتقدم، ومؤمناً بالدور الذي يمكن أن تؤديه الثقافة في حياة الشعوب.

البعد الإنساني

لم يقتصر اهتمامه على السياسة أو الإصلاح الاجتماعي، بل انفتح أيضاً على الهموم الإنسانية العامة، وعلى القيم المتعلقة بالعدالة والكرامة والتضامن بين البشر.

الخصائص الفنية في شعره

على الرغم من انخراطه في قضايا عصره، ظل سابا زريق وفياً للبنية الكلاسيكية للقصيدة العربية.

فتميز شعره بـ:

- الالتزام بالأوزان الخليلية.
- المحافظة على القافية.
- قوة اللغة العربية وفصاحتها.
- توظيف التراث البلاغي العربي.
- وضوح الفكرة وبروز الرسالة.

ولذلك يمكن اعتبار تجربته امتداداً للتيار الكلاسيكي الملتزم الذي رأى في الشعر وسيلة للتأثير الاجتماعي والثقافي، لا مجرد تعبير ذاتي أو جمالي.

سابا زريق وطرابلس: علاقة الشاعر بالمدينة

يصعب الحديث عن سابا زريق بمعزل عن طرابلس.

فالمدينة لم تكن مجرد مكان أقام فيه، بل شكلت جزءاً أساسياً من وعيه الأدبي والإنساني.

ومن هنا جاء لقب "شاعر الفيحاء" تعبيراً عن هذه العلاقة العميقة بين الشاعر ومدينته.

وقد حضرت طرابلس في شعره بوصفها:

- فضاءً ثقافياً.
- مركزاً للعلم والتربية.
- رمزاً للهوية والانتماء.
- مجالاً للعمل العام والخدمة الاجتماعية.

وبذلك تحول الشاعر إلى واحد من أبرز الأصوات التي عبّرت عن الشخصية الثقافية لطرابلس خلال القرن العشرين.

حفظ التراث واستمرار الرسالة

تكتسب تجربة سابا زريق بعداً إضافياً بفضل الجهد الكبير الذي بذله حفيده الدكتور سابا قيصر زريق في جمع أعماله ونشرها.

فهذا الجهد لم يقتصر على إصدار المجلدات الستة، بل تُوِّجَ بتأسيس **مؤسسة شاعر الفيحاء سابا زريق الثقافية** عام ٢٠١٣، بهدف تعزيز الثقافة، والمعرفة، وتشجيع الباحثين، والدارسين.

وقد أسهمت المؤسسة في إبقاء اسم الشاعر حاضراً في الحياة الثقافية اللبنانية من خلال نشاطاتها ومنشوراتها ودعمها للمهتمين بالبحث العلمي والثقافي.

ومن هنا يبدو شاعر الفيحاء مثالاً نادراً على شاعر لم ينقطع أثره بوفاته، بل استمر حضوره عبر مؤسسة ثقافية جعلت من إرثه الأدبي منطلقاً لخدمة المعرفة في المجتمع.

يمثل شاعر الفيحاء سابا زريق واحداً من الأصوات الشعرية المميزة في لبنان، وبذلك تتجاوز قصته حدود السيرة الفردية لتصبح قصة استمرارية ثقافية نادرة: شاعر يكتب، وحفيد يحفظ، ومؤسسة تواصل الرسالة. ومن هنا تبرز ضرورة إدماج سابا زريق في تاريخ الأدب العربي الحديث عن طريق إدراج أعماله في المناهج المدرسية والجامعية، بوصفه أحد الأصوات النهضوية التي أسهمت في تشكيل الوعي الثقافي ليس لطرابلس وبلاد الشام فحسب، بل للبنان والوطن العربي، حتى وإن بقي اسمه بعيداً عن دائرة الشهرة الأوسع التي نالها بعض معاصريه.

وإذا كان القرن العشرون قد شهد بروز اتجاهات شعرية متعددة بين التقليد والتجديد، فإن سابا زريق اختار أن يبقى قريباً من القصيدة العربية الموروثة، محافظاً على عمود الشعر العربي، مع تحميله مضامين إصلاحية ووطنية واجتماعية جعلت من شعره سجلاً حياً لقضايا عصره.